توبة المحروم!...

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

بقي في «نيويورك» يكدح وراء الرزق الشرود عشر سنين دأباً، ثم أصاب حظاً سعيداً بعد نحس، وارتجع(١) مالاً كثيراً بعد بؤس، فعاد — وهو على عتبة الأربعين — إلى مسقط رأسه (الميناء)(٢) بلدتنا الهادئة المنعزلة التي توشك ألا تسمع فيها الأجمال الطبيعية، وألا تحفظ لها ألا الاستعصام بالتقاليد.

وما جداك أن أصف لك «ميناءنا» الجميلة، فما أراك راغباً في الوقوف على ما صنع الغنى بصاحبنا الذي أوى إلى بلدته بعد غيبة طويلة؛ فهل غردت له بلابل السعادة أغاريدها الحلوة، وهل هتفت له هتفاتها الناعمة، أم نعبت له غربان الحوادث بشقاء جديد، ولاعت قلبه بهوان شديد؟

* * *

علمت أنه كان في «ميناءنا» قبل أن يتسع رزقه ويرفه عيشه مضرب المثل في قناعة العفيف، وعزة الشريف، سليم الفطرة معتدل المزاج حنيف الدين؛ فرجوت ألا ينقلب سهوان عن ماضيه، ووددت لو أبقت يد غناه على ذكرى فقره فلم تمح صورتها من مخيلته، ولم تبدد آثارها في فؤاده، ولم تمر شجرتها أمام عينيه، وتمنيت أن يكون له من صدق الأريحية وكرم الهزة ما يذكره بالفقراء والمعوزين الذين لا عمل لهم في بلدتنا إلا في البحر، فلا يحرمهم من صدقات يوزعها، أو زكوات يؤديها، أو ثمرات يجبيها، أو مشروعات يحييها، أو مصانع يؤسسها، أو مدارس يفتتحها، أو ملاجيء ينشئها، وألا يكون المال قد أطغاه، وختم على قلبه فأعماه!

ولم يكن رجائي إلا كرجاء الذي أراد أن يشم الريحانة فألفاها ذابلة، فما رضخت يده خيراً، ولا اصطنعت معروفاً، ولا كسبت معدوماً، ولا أعانت في نائبة، ولا ساعدت في خطب، وإنما نثرت المال على الهوى يمنة ويسرة، وفي الشهوة عشياً وبكرة، حتى عادت صفراء خالية، وباتت على إسرافها باكية...

* * *

أبطره الغنى فملأه العجب، وأفسده الفراغ فخبب إليه الطيش فأصبح سكران لا يصحو، هيمان لا يعي، «غفلان لا يفيق»(١)، وأضحى لا يحفل في الناس أحداً، ولا يقيم الكبير وزناً، ولا يرعى لصغير حرمة، ولا يرقب في ضعيف إلا ولا ذمة، وإنما كان ينظر إلى الجميع نظرة الفيل إلى البعوض أو الجمل إلى النمل، «لايحس منهم من أحد ولايسمع لهم ركزاً»

ومنذ ذلك الحين أمسى أهل بلدنا إذا أرادوا أن يصفوا الرجل الشهوان الذي ما ينفك يوبق جسده برغائبه، ويدسي نفسه بمعايبه، قالوا وهم يتخافتون: أهو أشد من فلان شهوة، وأكثر منه جهالة وصبوة؟!

وأنى لهم السكوت على مآثمه التي جرها عليه بذخه وسرفه، ولهوه وعبثه، وإنه لم يكتف ببنات الهوى يركبهن سيارته الفخمة، وينتقل بهن في شوارع البلدة المحافظة تحت الأسماع والأبصار، ولم يقنع بالخمرة يتهالك على شربها آناء الليل وأطراف النهار، ولا بالموائد الخضر يرودها غير ملول، ولا بالليالي الحمر يواصلها غير خجول، ولا بداره التي استحالت ندياً للأشرار، ولا بشقاقه مع الأبرار والفجار، وإنما راح يكال جميع ذلك بشرفه يدوس عليه، وبعرضه يفرط به، وبدينه يقصر فيه، وبوطنه يحقره، حتى أضحى شعور الناس لا يأتلف إلا على مقته، وباتوا من كرههم له يديرون في أفواههم ألسنة حداداً تلعنه، وينظرون صيحة القدر الراصد تأخذه وهو يعمه في طغيانه، ويتباهى بعدوانه...

* * *

ولم يطل املاء الله له واستدراجه، فما مضى عام واحد على طيشة ولهوه حتى خر من سقفه المرفوع، وتهاوت من شجرته الجذوع والفروع، وغدت جنته الفينانة ذابلة الورود، ميتة الأعشاب، ساكتة البلابل «فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها

(١) جمع. (٢) الميناء أسكلة على شاطيء البحر في مدينتنا طرابلس الشام.

(١) أذكر أني رأيت لأستاذنا الزيات مثل هذا التعبير.